بلاد العرب (*)

نورة تويتشل (١)

ترجمة : د. محمد بن منصور أباحسين
كلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة الملك سعود

بلاد العرب ! (يا لها من مكان رومانسي حقًا)! ؟ سيتساءل البعض، (يا لها من مكان مثير!) مثير! مدهش! روحاني! نعم، إنها كل ذلك وأكثر. ولكنني ما زلت أتساءل عن الذي يجتذبنا - نحن الشماليين - إلى الشرق. أهو شغفنا إلى معرفة ما على الجانب الآخر؟ جزئيًا. وربما أن ذاكرتنا ليست صادقة، وتغالي في الرفع من شأن بعض مظاهر هذه الأرض الغامضة والموغلة في القدم. إلا أن هذا البلد المتشكل من الصحارى الموحشة القاسية والجبال المخيفة الصامتة يظل متألقًا أبدًا بروعةِ جمالهِ المُلْهِمْ. ويمكن للمرء أن

(*) نشرت هذه المقالة في مجلة " العالم العربي " باللغة الإنجليزية في عام ١٩٤٤م :

Norah Twicthell "Arabia" Arab World, vol. 1. 1. 1(1944), pp. 41- 47.

(١) نورة تويتشل فنانة ترسمُ بالفرشاة، وتبدع بالقلم صورًا رقيقة، هذه المتواضعة "بنت الجزيرة بالتبني" تَجولت في أرجاء الجزيرة العربية أكثر مما تجولت امرأة على قيد الحياة. كانت رحلتها الأولى إلى اليمن في سنة ١٩٢٩م برفقة زوجها كارل تويتشل، وتشارلز كرين برادلي، اللذين نابا عن تشارلز آر. كرين، صديق العرب الحميم، في إحضار آلات ومعدات زراعيَّة إلى الجزيرة العربية، ومنذ ذلك الحين شاركت السيدة نورة تويتشل في ست رحلات إلى المملكة العربية السعودية واليمن، وكانت معظم زياراتها إلى المملكة. ولها معرفة بالبلاد العربية الأخرى، وتتحدث اللغة العربية.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٢٣هـ، السنة الثامنة والعشرون
الدارة

يقود سيارته لأميال عديدة عبر هذه الجبال، أو أن يركب دون أن يرى طائرًا أو شجرة أو حتى نباتًا، وأحيانًا يشعر المرء بالاختناق حينما يمر عبر الوديان الضيقة، ومع شروق الشمس تتغير الأشياء، فكل شيء رائع وغني بجمال متوحش غريب يستعصي على الوصف. هذه هي الصحراء. وبعد رحلة يوم شاق وطويل ربما يشعر المرء بالتعب والعطش، وربما تألمت عيناه من وهج أشعة الشمس، وفجأة تغيب الشمس، فتكتسي التلال البعيدة باللون البنفسجي والأزرق والذهبي، وتُمسي السماء في لحظةٍ كسقف مخملي أزرق قاتم نُثرت عليه الألماس. الهواء رقيق؛ إذ يهبّ نسيم رقيق من جهة الشمال، فتمتلئ النفس بالطمأنينة.

(ومع الفجر يأتي الضياء) وحين انبلاج الضوء يكون الجو ساكنًا وصافيًا، وتصبغ الألوان اللؤلؤية الناعمة السماء والتلال والرمال، ويزداد صعود الشمس في السماء، وكل يوم يبارك الجمال هذه الأرض، وتبدو الصحراء كأنها قد عادت إلى الحياة فجأة بعد ساعات قليلة من المطر المنهمر. ترعى الأغنام والماعز والجمال بطمأنينة هذا العشب الجديد ذي الرائحة الذكية.

صور، صور، صور. وماذا عن سكان هذه الصحارى والجبال؟ نحن – الشماليين – نمكث قليلاً ثم ننتقل إلى أرض أخرى، ولكن ماذا عن العرب أنفسهم؟ يصارعون من أجل الحياة جيلاً بعد جيل، ويحيون ويحبون، شجعان أشداء، وربما قساة، ولكن فيهم رقة لا توصف، فلم أسمع بحالة عنف موجهة ضد امرأة أو طفل، ولم أرَ أو أسمعْ أحدًا يضايق امرأة في مدن الجزيرة العربية وقراها، ولا يمكننا أن نقول ذلك عن أوروبا أو أمريكا.

في الجزيرة العربية تحتل المرأة منزلة عالية؛ فالمعنى الأصلي لكلمة (حريم) هو (الشرف) أو (الحرمة) إذ تدعى الزوجة (الحرمة

فاطمة) و(الحرمة عائشة) وهكذا. والمرأة خارج منزلها دائمًا محجبة، تتسوق، وتزور صديقاتها، وتذهب إلى المكان الذي تريد بسلام دون خوف من أن يكشف حجابها أحد، أو يقول لها قولاً شخصيًا في أثناء مرورها عبر الطرقات المزدحمة، لا تختلط بأصدقاء زوجها في المناسبات الاجتماعية، ولكنه يحترم ذكاءها ويقدره، ويستشيرها في جميع الأوقات، وبعبارة أخرى فالزوج والزوجة في الجزيرة العربية شركاء حقًا، والمرأة في منزلها ملكة.

الزوج والزوجة في الجزيرة العربية شركاء حقًا، والمرأة في منزلها ملكة

مكثت منذ زمن قريب مع زوجي في مخيمنا بالقرب من بلدة رابغ الصغيرة الواقعة على بعد (١٠٠) ميل من جدة على ساحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية، وتناولنا العشاء مع أمير رابغ الذي كان يستضيف في الوقت نفسه بعض المسؤولين الحكوميين، وفي أثناء العشاء تبادلنا الأحاديث بشأن تجاربنا وآرائنا، وسألت أحد المسؤولين ما إذا كان لديه أكثر من زوجة على حسب الشريعة الإسلامية، وسؤال كهذا لا يوجهه رجل لآخر، ولكن كوني امرأة منحني هذا الامتياز.

وكان جوابه: "يا سيدتي، عندما يحب المرء فإنه لا يتزوج إلا واحدة".

وبعد العشاء زرت مجلس النساء، وتناولت القهوة مع زوجة الأمير وصديقاتها، وكانت زوجة المسؤول الذي تحدثت معه من بين النساء. وكانت أجمل فتاة عربية رأيتها، تبدو متعبة، تعاني من الصداع وخاصة حينما تسافر مع زوجها، فأعطيتها بعض حبوب الأسبرين، وسألتها لماذا يجب عليها أن تسافر كثيرًا، خاصة أنها لا تبدو في صحة جيدة؟ قالت: "يسافر زوجي كثيرًا من مدينة إلى أخرى، ويريدني أن أسافر معه". فسألتها: "لكن أليس من الأفضل لك أن

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣٢هـ، السنة الثامنة والعشرون

تظلي في المنزل أحيانًا لتستريحي ؟" فأجابت : "آه، لا يا سيدتي لا أستطيع ذلك، إنني أحبه".

وعلى العموم فإن لدى الغربيين فكرة خاطئة عن وضع المرأة في الشرق، ومع أن وجهة نظرنا الغربية ترى أن حريتهن محدودة، فإنهن في الواقع يُعاملنَ باحترام وفروسية واعتبار. وحينما يسافر الزوج مع زوجته وليس لديهما سوى حمار أو بغل فإن الزوجة تركب والزوج يمشي إلى جانبها. لقد حضرت موائد كثيرة وغداءات متعددة كان بعضها في الفضاء الطلق، وكنت في جميع الحالات المرأة الوحيدة هناك، ولكنني لم أعامل معاملة تشعرني بذلك، فكلما تناولنا عشاء مع الراحل محمد أمير اليمن كان يجلسني إلى يمينه، وحينما أُحضِرَ الطعامُ قدّم لي الأطباق شخصيًا واحدًا تلو الآخر، وأخبرنا بكل أدب أنه لا يتحتم علينا أكل كُل شيءٍ يوضعُ أمامنا، وقدّرنا ذلك لأن هذه الأطعمة تتكون من أطباق عديدةً تتراوح ما بين (١٦ ـ ٢٠) طبقًا، على حين تصل درجة الحرارة في الظل إلى (١٠٠) درجة فهرنهايت! وكنا في جميع أسفارنا عبر المملكة العربية السعودية واليمن نقابل بأدبٍ جم.

لدى الغربيين فكرة خاطئة عن وضع المرأة في الشرق

هناك مثال آخر على المجاملة العربية؛ كانت زيارتي الأولى للجزيرة العربية منذ أربعة عشر عامًا، وكانت الزيارة في سبتمبر، وسيتذكر كل من سافر عبر البحر الأحمر خلال تلك الفترة مدى تشبع الهواء بالرطوبة، ورأى زوجي أنه من الحكمة أن أغطي شعري بحجاب لأنه يعرفُ أن كل النساء العربيات يتحجبن خارج منازلهن، وكنت تقريبًا أول امرأة غربية تزور الجزيرة العربية، وكنت قد اشتريت في أثناء مروري بالقاهرة قطعة قماش من الحرير المصنوع، ولم أتوقع أن أتنفس لمدة ثمانية أشهر أو أكثر عبر هذا الحجاب،

ولكنه يبدو أن لا مناص من ذلك. كان الأمير محمد قد بعث عمه رئيس شرطة الحُديدة لاستقبالنا، وحينما صعد إلى السفينة كنت على وشك وضع الحجاب، فقال لي : "لا يا سيدتي، لا تزعجي نفسك، فسمو الأمير يبلغك احتراماته، ويرجو أن ترتدي ملابسك كما لو كنت في بلدك، وعلاوة على ذلك أن تكون الملابس مريحة كما تشائينها".

لقد قدرت اهتمامه جدًا، واحترامًا لتقاليد بلده قررت أن ألبس الحجاب فوق شعري تحت القبعة الهندية، ووجدت الحجاب مفيدًا في أثناء العواصف الرملية لحماية وجهي من الرمال المتحركة.

واحترامًا للعادات الدينية السعودية أثناء رحلتي إلى أعماق الجزيرة العربية كنت أرتدي ملابس شيخ عربي من رأسي حتى قدميّ لئلا أبدو أجنبية، كما هي الحال لو ارتديت ملابس أوربية.

وكان أول سؤال يوجهه الأمير إلينا حينما نصل إلى بلدةٍ أو واحةٍ هو: "هل السيدة متعبة؟ يجب أن تستريح، وتتناول قهوة في الحال".

وكانت هذه المجاملة واللطف موجهًا في أغلب الحالات من أناس لم يروا من قبل امرأة غير مسلمة، وأركز على هذه النقطة لأن كوني امرأة يعني الكثير بالنسبة إليّ وما زال؛ ففي هذا العالم الصناعي من أيامنا هذه الموسومة بالسرعة والتوتر تكاد المجاملة تكون معدومة، فمنذ سنوات مضت سافرت أنا وزوجي بمحاذاة الساحل العربي من جدة باتجاه الشمال لمسافة (٢٥٠) كيلو متر، ولم تعبر هذه المنطقة سيارة من قبل، ولذا تحتم علينا في معظم الوقت أن نقود سيارتنا مستعملين ناقل الحركة الأول والثاني، وغالبا ما نصل متأخرين في أثناء الليل. ومن أكثر الذكريات إمتاعًا في تلك الرحلة رؤيتنا في الساعة الثامنة ليلاً ميناء أملج الصغير الذي سيكون مقرّنا في تلك الليلة. لقد كانت جوهرة ساطعة على منحدر صخري أبيض مرجاني

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٢٣هـ، السنة الثامنة والعشرون
الدارة

شاهق. وكان مؤشر البنزين على الصفر، وكنا محظوظين؛ إذ ساعدنا ضوء القمر على التعرف على طريق الجمال الذي قادنا إلى الميناء، ورحَّب بنا أمير أملج حين وصولنا إلى الحصن. وهناك استرحنا قليلاً في فناء نصف دائري يُطل على البحر. وقدمت لنا القهوة اللذيذة كما هي العادة في الجزيرة العربية حينما يفد الأصدقاء أو الغرباء، لقد كنت متعبة جدًا ومتسخة بعد يوم طويل من السفر، وسأل الأميرُ زوجي: إن كان هناك ما يستطيع أن يفعله لي، فأجبت في الحال : " هل أستطيع من فضلك أن آخذ حمامًا؟ " "نعم بكل تأكيد؛ ولكن من فضلكِ استريحي وتناولي العشاء أولاً".

وبما أننا قد وصلنا إلى مرحلة عالية من التعب والإرهاق فإن كل ما يرغبه الإنسان في هذه الحالة لا يتجاوز حمامًا مُهدئًا، فقد التمسنا أن ننتقل إلى غرفنا المخصصة لنا في هذه الليلة، فدلّنا الجنود إلى بيت الضيافة حيث وجدنا سريرين مصنوعين محليًا، وقد بُسِطتْ عليهما السجادات، وينتظراننا فوق السطح. وبينما كنا نفرز فُرَش أسناننا وصابوننا وفوطنا سمعنا شخصًا يصعد الدرجات الصخرية ببطء، وينادي بصوت عالٍ : "يا مهندس، مويه، مويه !".

ثم ظهر خادم عربي يحمل قربة ماء على كتفه، وكان في إحدى زوايا السطح سقيفة هي حمامنا، وأفرغ الماء في إناء منتصب في زاوية الحمام، ثم نزل إلى الطابق الأرضي. بعد دقائق قليلة عاد بقربة أخرى مملوءة بماء حار أفرغه في إناء آخر، ولم يلحظ وجودنا بعد، فطلبنا منه إحضار الماء، وكان فَرِحًا لأننا تحدثنا معه، وأخذ يشرح لنا بكل احترام كيف يجب أن نغتسِل! "أولاً : اسكب الماء البارد على جسمك، ثم استعمل الصابون، ثم اسكب الماء الحار بعد ذلك !". وبدا مندهشًا حينما ضحكنا، ولكنه شاركنا الضحك في الحال، لقد لحظنا دائمًا أن للعرب استجابة سريعة للابتسامة واللطف.

ولكن ماذا عن أطفال الجزيرة العربية ؟ لقد رأيت منذ سنوات في اليمن أطفالاً يتزاحمون في غرف سيئة الإضاءة والتهوية في بعض المدارس، وكانوا يجلسون على صناديق الكيروسين، ويحاولون بكل صعوبة أن يدرسوا، هل تقول: إن هذه أوضاع بدائية ؟ نعم، بالفعل، ولكن سببها الجهل.

وبعد أن لفتنا الانتباه إلى خطورة هذا الوضع وأنه من السهولة تحسينه، تم إصلاحه في الحال. وشكرونا على نصائحنا بكل إخلاص، وفي ذلك الوقت كان هنالك مدرسة واحدة صغيرة في بلدة (حجة) الواقعة في جبال اليمن. والآن نمي إلى علمنا أنه بسبب نشاط الأمير ولي العهد تم إنشاء ما يزيد على أربعين مدرسة، يزيد عدد طلابها على ثلاثة آلاف طفل في المنطقة نفسها.

أما المملكة العربية السعودية فإن الشيوخ العرب القادرين فيها يرسلون أبناءهم إلى كليات إستانبول وبيروت والقاهرة لدراسة المناهج الأجنبية في مجال الزراعة والهندسة والطب لكي يواصلوا تطوير بلدهم، ويحلوا مكان المهندسين الأمريكيين والبريطانيين الذين يقومون الآن بهذه الأعمال. إنني متطلعة إلى رؤية العرب وقد طوروا الزراعة في بلدهم مما سيعود بالفائدة على البدو تحديدًا.

ومنذ سنوات بناء على طلب جلالة الملك عبدالعزيز كنت وزوجي نحاول تحديد موقع منجم قديم، ولم يكن أحد يعرف موقع هذا المنجم في كل المملكة سوى معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية. فبعد أن درس بعض المخطوطات القديمة في مكة، وأثناء رحلاته رأى صدفة أحد جبال هذه المناجم، وكان يرافقه رجل من المدينة حينما اكتشفه، وأخبرنا الرجل أنه يتذكر الطريق إلى ذلك الجبل، وعُيِّن دليلا لنا. وقال : "إن الجبل يبعد ثلاث ساعات فقط بالسيارة عن مخيمنا الواقع بالقرب من المدينة"، وحزمنا أمتعتنا

فرحين، وانطلقنا حسب توجيهاته في سيارتنا الفورد يصحبنا سكرتيرنا السوري القدير ودليلنا العربي.

وبصحبتنا ثلاث سيارات من طراز فورد تحمل خيامنا وفرشنا وأطعمتنا، إضافة إلى الجنود والخدم والكثير من البنزين.

وبعد ساعات من السفر عبر الطرق الجبلية الوعرة والوديان الجافة لم يَبْدُ دليلنا واثقًا. وحينما أرحت زوجي من عبء القيادة، وتسلمت مقود السيارة أوشك الدليلُ على القفز من السيارة قائلاً: "امرأة تسوق، إنه أمر لا يمكن تصوره! سوف نموت جميعًا!".

حسنًا، لم نمت، لكننا أمضينا يومنا نقود السيارة عبر الجبال، وأحيانًا نصعد سفوح الجبال مستعملين ناقل السرعة الأول والثاني، وكنا بالفعل نتعرف على الجانب الآخر! ومن حسن الحظ أننا قد أحضرنا معنا معاول ومجارف لإزالة شجيرات الطرفاء المعترضة التي تعيق تقدمنا، وواصلنا البحث لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث كان دليلنا قلقًا وأخذ يُردد: "أعرف أنه ليس بعيدًا"، فقلنا له: "هذا ما قلته منذ ثلاثة أيام، ولم يعد لدينا من الماء والبنزين إلا القليل، والماء يتسرب بسرعة من أحد رديترات إحدى الشاحنات، ولم يعد لدينا إلا القليل من الطعام. فماذا بعد؟".

وبعد دقائق وصلنا فجأة أرضًا فسيحة شاسعة. (نعم، يا لفرحتنا. إننا نرى فعلاً بقعًا سودًا على مدى الأفق). (خيام البدو!) سيكون هناك ماء، وربما يعرف أحدهم موقع الجبل الذي نبحث عنه! وتقدمنا باتجاه المخيم، ولا بد أن مظهرنا كان مخيفًا، ولم نَر سوى بدوي واحد، كان يقف هناك عاقدًا يديه حول صدره وكاشفًا رأسه، شعره أسود مرسل طويل، وملامح وجهه عادية وقوية، ورباطة جأشه شبيهة برباطة جأش هندي أمريكي نبيل، يا له من اتزان وكبرياء! أوقفنا السيارة، وسرنا باتجاهه، فأنصت بجمود إلى استفسارات

دليلنا عن الطريق المؤدي إلى معرفته بالمنجم القديم فقد كان لديه أيضًا فضوله الشخصي، لقد كنا على بعد ساعات قليلة من هدفنا، وعلى الرغم من أنني كنت وزوجي نرتدي ملابس شبيهة بملابس شيخ عربي فإن بشرتنا البيضاء أفصحت عنا، لم يسأل البدوي عن هويّتنا أو العمل الذي نقوم به بعيدًا عن المدينة، فقد قَبلَنا وسياراتنا كما لو كان معتادًا على رؤية الغرباء كل يوم من أيام حيَاته، كنا أول غربيين يراهما في حياته، وطلب منا أن نشاركه القهوة في خيمته المصنوعة من شعر الماعز، لقد كانت بساطته وكبرياؤه ومجاملته الصادقة تنمُّ عن تصرفات ملكية، ويستطيع المرء أن يجد هذه الصفات في الجزيرة العربية التي يحكمها ملك محبوب لبلد ديمقراطي، فكلهم إخوة.